

هدنة الموتى

عبد الله عيسى، فلسطين

حدائق القتلى

لم يكثرَ ساعي البريدِ بما تأخَّرَ من رسائل
في الصناديق التي كلحتْ ببرقياتِ نعي الأولين،
ولم يجدَ أثراً يدلُّ على العناوين التي اندثرت بسيرة ساكنيها تحت أنقاض البيوت المهملة.

لكأنَّ تشرينَ الأخيرِ من الشهرِ
يَسُوطُنَا من بين أرجلنا إلى سورِ القيامةِ،
يُخرجُ القتلى من العهدِ القديمِ
مصدِّقاً بالطَّينِ في أفواههمُ
ومبشِّراً بهلاكه بينَ الهوامشِ في الأساطيرِ القديمةِ،
والجرازين التي نبشت قبورَ الميتينِ
ويُنبتُ القيصومَ تحت أظافرِ الجثثِ التي كانت جنوداً أمطرونا بالحرائقِ والظلامِ.

رأيتُ سيِّدةً أرادتُ أن تواري طفلها في بطنها.
حتى المقابر غيرِ آمنةٍ، تصيحُ.
رأيتُ طفلاً لم يجدَ ظليّ ذراعيه على كتفي أخيه في عناقهما الأخير
كأنَّ موتِ الضوءِ في عينيه
أشبه بارتطامِ قذيفةٍ أخرى برأسك كلِّه.
وصبيّةٌ ترثي أمامَ الكاميراتِ حياتها:
هذا حبيبي. أحضروه في الحقيقةِ.

لا أصدِّقُ ما روى الموتى،

يقول معلّم التاريخ،
 للجغرافيا جدوى مكوّتك في الحنين إليك،
 حيثُ هناك
 أنتَ
 تقيمُ مآدبَةً لقتلى العائلة،
 وتُطارِدُ الظلماتِ
 في أثرِ الذينِ تربّصوا بظلالنا
 بيضاء
 في الأسفارِ.
 لا تدفنُ بقايا زهرة الدفلى على طرف البحيرة تلك،
 لا تَرثِ احتضاركِ قبلَ أن تُبلى بشوكِ التاجِ تنتظرُ القيامةَ في الطريقِ إلى السماءِ
 تقولُ راهبةٌ لجنديٍّ
 رأَتْ سبّابةَ الشيطانِ فَوَقَّ زنادِهِ.
 ما عدتُ جائعَةً وخائفَةً تماماً
 لا أريدُ رغيْفَ خبزٍ ساخنٍ
 أو كأسِ ماءٍ باردٍ
 لا ملجأً
 أو شمعةً
 بل محضَ قبرٍ،
 وليكنُ جماعياً
 تشاركنا دساكرهُ العصافيرُ التي حلمتُ بأشجارٍ وأنهارٍ توأخينا،
 وأحراشٍ تصليّ في الجبالِ لنا،
 ومكتشفو كهوفٍ أورثتُ أنسابها لرسومنا الأولى،
 وشعبٌ بين مذبحتينِ يلعنُ قاتلَهُ.

هدنة الأشباح

دَعْنَا نُقِمْ هُدْنَةً أُخْرَى،
فُنْدِرَكَ أَنْ الْمَوْتَ ثَالِثُنَا،
الإثنين
أَخْطَأْنَا مِنْ أَجْلِنَا مَرَّتَيْنِ
كِي أَدْفِنِ الْقَتْلَى، وَتَنْجُو إِذَا
بِنَفْسِكَ مِنْ حِمَاقَةِ الْقَتْلِ:
قَتَلْتُ نَفْسِ نَفْسِي الَّتِي مَدَّتْ يَدًا لَكَ بِالْحُبْرِ الْمَطْيَبِ وَالزَيْتِ الْمُقَدَّسِ،
قَالَتْ كُنْ لَطْفِي عَصَا،
فَصَرْتُ أَفْعَى.

وَقَتَلْتُ فِكْرَةَ الْوَرْدِ فِي حَاكُورَةِ الْبَيْتِ
مُدَّجَاءَتْ بِكَ الرِّيحُ كِي تَسْتَوِطْنَ
الْبَيْتِ
بِيْتِي بَعْدَ قَتْلِي.

وَقَتَلْتُ عَشْبَةَ تَقْتَفِي خَطَايَ فِي الْحُلْمِ كُلَّمَا أَعُودُ إِلَيْهِ.
قَتَلْتُ لَيْلِكَةَ تَنْمُو كَذَاكَرَةَ عَلَى قَمِيصِ ابْنَتِي.
وَقَتَلْتُ أَرْوَاحَ مَوْتَايَ الَّذِينَ رَأَوْكَ فِي صُورٍ لَهُمْ تَزْيِينُ جَدْرَانِ بِيوتِهِمُ الْأُولَى،
وَأَنْتَ، بِكَفِّي قَاتِلٍ، تَصْنَعُ النُّعُوشَ أَوْ تَحْفَرُ الْقُبُورَ.
قَتَلْتُ نُورَسَةَ كِي تَأْمَنَ الْبَحْرَ،
قَتَلْتُ مَا خَصَّنَا اللَّهُ بِهِ
الْمَاءَ وَالْمَجْرَى،
الْهَوَاءَ وَكِبْرَةَ السَّمَاءِ،
وَصَايَا النُّحْلِ وَالزَّهْرِ،
ذَاكَرَةَ الْخِرَافِ وَالْمَرْعَى.

إِذَا، هُدْنَةً أُخْرَى، مُؤَقَّتَةً
لِكِي أَجِدَ الْوَقْتَ فَأَمْدَحَ قَتْلَايَ

وأدخلهمُ جمعاً إلى باحة الفردوس، كُلُّ إلى فردوسِهِ.
وأصاحبَ الرُّواة إذا رأوا دمي صارخاً تحتَ الركامِ،
فأبصروا جسدي يأوي إلى ظلِّ جثَّةٍ على جَنَبَاتِ السورِ،
أو في ظلامِ السجنِ، أو في بيوتِ أفسدتها يدَاكِ.
لم يعدْ أيُّ شيءٍ في المدينة هذه يشبهُ أيُّ شيءٍ.
لم نعدْ نحنُ أيضاً مثلنا.
الفراشاتُ الصغيرةُ كلها بكاملِ ياسِها تموتُ وقد جرفتِ الحقولَ كلها.
لنْ تُؤخَّرَ الربيعُ إذا دعستَ وردَ حديقةِ البيتِ.
بيتي ذاكِ
ذاكِ الذي ما عادَ بيتاً.
ولنْ تمضي إلى الغدِ آمناً إذا ما أتيتَ بالسلامِ على أرضي.

إذا، هدنةٌ أخرى تماماً!
لكي يتَّفَقَ الجنرالاتُ، ومُغتَنمو الحروبِ، والزعماءُ الفاسدونِ،
الذينَ كلُّما دخلوا أرضاً ذروها خراباً
ناهشوا لحمنا
وناهبوا دمنا
أننا نستحقُّ أنْ نموتَ ككلِّ الناسِ
نحنُ الذينَ أردنا أنْ نظلَّ جدارَ كلِّ بيتِ،
وسماءً لكلِّ سنبلةٍ تركتْ ظلالها في الحقولِ،
زهراً للفراشاتِ والنحلِ الذي يأمنُ في الحيِّ عذراواتِهِ.
نحنُ مَنْ يجعلُ مملكةَ السماءِ سالحةً لما نرى من حياةٍ.
من رأى الملكوتَ قابَ قوسينِ أو أدنى منِ الألمِ الذي يؤرِّقُ قتلى
خسروا حلمهمُ في أنْ يعودوا
فخَرَّوا في الروايةِ صرعى.

هدنة الموتى

لم يعد للحروب مذاقات تلك الحروب العظيمة:
 لا شيء يحتكر الوقت في ظل هذا المكان،
 ولا هدنة كي نلّم الجثامين من جناب الشوارع،
 أو نتفق أسماءنا في بطون المقابر.
 حتى ندلّ صراخ الرهائن تحت الركام إلى منفذ للنجاة،
 ونندم أنا تعجلنا موتنا فازتدينا السواد، لئلا نعود رماداً إلى ضفة النهر،
 نهري الذي يقتفي معي الغيم
 حتى نصدق أن مياه البحيرة لا تشتهي قمر الحي للغرباء هنا.
 قل يا غريب: لماذا أتيت وكان عليك الرحيل؟
 كأنك، مثلي، هنا، لا أكلّم غيري هناك!
 لعلك لوحت حتى أرى أنني لم أعد شبحاً ما،
 وأنتك وارىت عينيك في جثة تتعفن كي لا تراني.

كأنّي عرفتك!
 تصرخ أرملة هرعّت كي تُعانق طفلتها في الزقاق الذي مأل فوق الجدار المقابل
 أنت!
 الذي...
 أنت!

كنت ترابي الجرازين في سفن تركت عرضة للهلاك!
 كأنّي نجوت بمعجزة ما لأنّي هربت.
 ألم ترني في مرايا ضحاياك سيده فقدت في الحروب الصغيرة سيدها
 أتلمس قلبي، وأندب خاتمتي:
 إلهي! ما أكثر الميتين الذين دفننا،
 إلهي! ما أكثر الميتين الذين أضعنا!
 إلهي! ما أكثر الميتين الذين فقدنا!
 وما أكثر الميتين الذين!

وما أكثر الميِّتين ...

وما أحدٌ منهم اليومَ
إلا وأودعتُ فيه خلاصَةَ روجي!
وما أحدٌ فيهم اليومَ

إلا وبشَّرْتُهُ بالخلاصِ!

ولا شيءٌ في هذه الحربِ يحدثُ قد يُشبهُ أيَّ شيءٍ سيحدثُ في أيِّ حربٍ ستحدثُ.

قد تقتلونَ المغنِّي،
ولنْ تستطيعوا اغتيالَ الأغاني.

بيان عاجل

وأما أنا
لم أسامحُ
على موجةٍ سرقوها لكي يعبروا غدهم، دوننا، بين ميناء يافا وشاطئ غزة،
والبحرُ في عهدتي مذ وجدنا معاً.
كيف تغفر نورسةً أنني قد أضعتُ لها أثراً يتعقبني في الطريق إليَّ
أنا زمني ومكاني!

أنا
لم أسامحُ
على كَوِّهِ مِنْ سماءٍ لنا جعلوها خياماً تقلبُها معنا الريحُ في كلِّ أرضٍ .
فهل كلُّ أرضٍ كأرضي؟
أَتَصَفِّحُ سنبلةً لا تزالُ تَوَاحِي
يديَّ،
وبشَّرْتُ كلَّ الشعوبِ بها،
أنني، مِنْ فَرَطِ حَبِّي للغيمِ، صَيَّعْتُ حَقْلِي وبُئِرِي؟

أنا فكرتي ولساني.

أنا

لم أسامحُ

ولو وضعوا الشمسَ فوقَ جبيني،

أو سخَّروا الريحَ والرملَ يسجدُ لي،

لا أفرِّطُ بالضوءِ فوقَ حجارةِ أسوارِ عكا،

أكلُّ الحجارةِ مثلَ حجارتي تقفني أثرَ الأنبياء؟!

فهلَّ يسامحني قاتلي أنني جئتُه في المرايا؟

أنا أبجديَّةُ خاتمتي وزماني.

أنا

لم أسامحُ

على قطرةٍ من دمٍ، أو ندى أهدروا

منذُ سبعينَ ممَّا نُعدُّ ونيف.

على مطرٍ أهرقوا في سماواتنا

أو على حجرٍ سرقوا كي يدلَّ عليهم.

أكانَ لزاماً عليَّ هنا أن أواري، بكاملِ سيرتها، ذاكراتِ المقابرِ

تحتَ الوسائدِ؟

أو أحتمي بأصابعِ قتلاي منَ محضِ مقتلةٍ تتربِّصُ بي.

وأنا منَ رأني رأني.

أنا

لم أسامحُ

منَ اقتادَ أرضي إلى جهةٍ غيرِ معلومةٍ في الخريطةِ تلكَ،

وشعبي على شاحناتٍ محمَّلةٍ بمادبِ قتلاي تلكَ إلى هجرةٍ أشبهَ بالتنزُّهَ بينَ قبورِ أبالسةٍ.

منَ رمى الوجعَ المتخترَّ في سيرِ المُرسلينَ الحزينينَ، بينَ يديَّ،

ومُقتنياتِ القلوبِ التي فقدتْ أملاً، أيُّما أملٍ، أن تفيقَ على قيدِ هذي الحياةِ،

أنا مَنْ نجا مِنْ مكائِدِهِمْ بالأغاني.

أنا

لم

أسامخُ 